الهارب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

— ١ —

دخل «سعيد الميداني» على مدير دار الكتب — حين أذن له — وهو يحيي وينشر الجريدة التي كانت مطوية تحت إبطه وقال وهو يقدمها له :

« هل قرأت هذا يا بك ؟ . . إن الحملة واضحة التلفيق ، ولهذا جئت وفي مرجوى أن أظفر منك ببيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب ولم يكتم ضجره وهو يقول : « تفضل . تفضل . إن كل ما يعني رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون — كل ما يطلبون — فيها وأن يهتدوا اليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت ؛ ومتى كان هذا حاصلاً فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول غيرها ؛ وهذا حسبي وحسبك بيانا . فاذا قنعت به فذاك ، وإلا فأمرى إلى الله فما أستطيع أن أضيع وقتي في الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم وضع بين صفحتين فيه قلماً أحمر غليظاً ، وكان ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به ؛ بل لقد خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر ، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية ومن أنشطهم وأشدهم إقبالاً على التحصيل والاطلاع ونزوعا إلى الاستقلال والعمل الحر ، وخال فيه صاحب جريدة «الأحوال» الخير من لحاته ، وآنس الرشد من أعماله ، فألحقه بمساعديه الكثيرين ، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصي الحقائق

ورأى المدير أن سعيداً ينظر إلى الكتاب الذي بين يديه فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال : « على فكرة ... هل عندكم في « الأحوال » ملفات خاصة بتراجم المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمراً فقال : « متى أسست جريدة الأحوال ؟ »

فقال سعيد « بعد الحرب العظمى ... سنة ١٩١٩ — أو ١٩٢٠ »

فقال المدير : « إذن لا فائدة ... »

فقال سعيد « هل تسمح لي أن أسأل ما هي الحكاية لعلي أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة أنها مسألة غريبة ... كنت أمس أقرأ كتابا لعبد القادر التميمي وهو كاتب مصري وشاعر أيضاً وإن كان شعره قد ضاع باهماله أو على الأصح لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأي الناس فيه ، وقد كان مشهوراً منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ، ولا يدري أحد أهو حي فيرجى أم ميت فيبكى ... وقد رجعت اليوم إلى المستدرك (وأشار بيده إلى الكتاب الذي بين يديه) وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الأعلام للزركلي ، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر ذلك وليس فيها تاريخ لوفاته ؛ والمفهوم من هذا بداهة أنه كان حياً حينما صدر الجزء الرابع من

أعلامه — أعنى المستدرك — ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته إذا كان قد مات ولكنه كان حينئذ خليقاً أن يذكر تاريخاً تقريبياً لوفاته على عادته . لهذا أرجح أن الرجل كان حياً وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل ... فهل هو لا يزال حياً ؟. أم تراه مات ؟ وأين ؟ هذه هى المسألة ... ولست أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى ولكن أدر المسألة فى خاطرك عسى أن تهتدى إلى شىء فتخبرنى ... إذا سمحت ولك الشكر »

ونهض واقفاً إيذاناً بانتهاء المقابلة . ولكن سعيداً كان مطرقاً وكان يفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير بقف فعاد ذلك إلى مقعده على مهل ، وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئاً يستحق أن يصغى اليه . وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف :

« عبد القادر التميمى ؟ أى نعم ! أذكر هذا الاسم ... وإن كنت لم أقرأ له شيئاً ... قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ... وسمعت من أستاذنا فى الجامعة أن الناس فى عصره كانوا فى حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لا يعرف له جداً من هزل ... وكان يتهكم بكل شىء ... كل شىء حتى نفسه ... وكان أسلوبه جديداً فى بابه فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه ولكنهم أخفقوا فأقصروا ... »

وهنا تململ المدير فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل وإنما كانت حاجته إلى من يدله عليه وعلى مكان قبره

ومضى سعيد فى كلامه غير عابىء بضجر المدير فقال : « نعم ... وأذكر أن أستاذنا قال : إنه رحل عن مصر وخلف أسرته بها وترك لها كل ما جمع من مال ، وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك ولكن من المحقق أنه لم يمت وإن كانت أخباره قد انقطعت ... نعم أذكر هذا ... »

فقال المدير : « أواثق أنت من ذلك ؟ »

قال سعيد : « كل الثقة ... ولكن أين هو ؟ لا يدرى أحد »

قال المدير : ولكنه — إذا كان لا يزال حياً — لا بد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين ... انتظر ... ولد ... ولد ... نعم ... سنة ١٨٥٠ فهو الآن فى السادسة والثمانين من عمره ... هل تظن ؟. ولكن ... السادسة والثمانين ؟ ... يالله !... أتظن ؟... إنى لا أكاد أصدق ... لقد كان معروفا عنه أنه مسرف فى إنفاق حياته ... لا يبالى أعاش أم مات ... فكيف يمكن ...؟ »

فقال سعيد : « مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرون »

فقال المدير وهو شارد : ربما ... ربما ... ولكن ٨٦ سنة ؟... هذا عمر !... هذا ... »

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير وقال : « سأعنى بالبحث . وإذا وفقت إلى شىء فسأخبرك »

فناوله المدير يده وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦ سنة ؟ أما لو كان حياً ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

— ٢ —

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع فى خلالها كلمة من سعيد ولم يكف هو أثناءها عن البحث والتقصى — عبثا — فأقصر يائساً وصرف

نفسه آسفاً عن عبد القادر التميمى . وكان جميل بك — أو إذا شئت اسمه كاملا جميل بك أحمد القناوى — مخلصا عطوفا رقيق القلب وقد شق عليه جداً أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحواً من أربعين سنة فتنساه الدنيا التى كان يسرها وعلؤها حبوراً وجذلا ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف ... أهو حى أم تراه مات ... وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة انسانية لأنه لم يكن يشك فى أن اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكليتين ... وهو مع ذلك الذى يرفه بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويغذيها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والنور كما تفعل الشمس . ولم يسعه إلا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لا يكاد يختفى فيه شىء فى هذا العصر ؛ ورجح عنده لهذا أن الرجل لا بد أن يكون قد لقى حتفه فى أول مراحل هجرته — إذا صح أن تسمى هجرة — ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته ، وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به .. وهز جميل بك كتفه ومط شفتيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « إيه ! لا حول ولا قوة إلا بالله »

وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتلفون يدق الى جانبه فتناول السماعة متثاقلاً وقال : « نعم » ولكنه ما عتم أن اعتدل فى جلسته وصاح : « إيه ؟ . ماذا تقول ؟ »

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعة وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها فى الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع فى الطبق أربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعاً . وإنه ليهم باشعال الخامسة وإذا بالخادم — فقد كان فى بيته — ينبئه أن « سعيد أفندى الميدانى » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « أدخله .. أدخله » ويسبقه هو إلى الباب

ويدخل سعيد أفندى ويده فى يد جميل بك وهو يقول : « نعم وجدته ... فى غرفة فى ربع قديم فى أعتق أحياء هذه المدينة ... أو هو من أعتقها ... »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد أفندى : « أوه ... هذه حكاية طويلة ... وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم أنى وجدته ... ويمكننى أن أقول لك إنى استعنت بابنه وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة ... هل تعلم أن ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين وأن له حفيدة تزوجت وولدت بنتاً . . ؟ »

فيقول جميل بك : « ليس عجيباً أن يعتقد ابنه أن أباه مات وشبع موتاً ... ولكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك إن هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « إنما أعنى كيف حاله ؟ »

فيقول سعيد : « حاله ... وما ذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعدته شيخوخته العالية عن العمل ؟ . فقر وضعف وعمش ... حال لا يعلم بها إلا الله »

« ولكن كيف يعيش . . ؟ »

« كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون حقيقته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى ... أليس اسماً غريباً ؟. إن اختياره له ينبئ بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال . . . لقد أدهشنى منه أنه لا يزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه فى الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة ... ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه »

فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف ... ولكنه أبى أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حملة عليه وخشى أن يأنف ابنه من الانتساب إليه إذا وقف على حاله الزرية »

« وهل قابل ابنه ؟ »

« بالطبع ... وقال له حين رآه ... من يصدق أنك ابنى ! إنى أبدو أصغر منك على كل حال . يمكنك دائماً أن تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة ، فما أشك فى أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى . وأحسب أن بعثى الآن قد خيب أملك فى ... كذلك قال لابنه ... مدهش أن ذهنه لا يزال حافظاً لقوته ... قال لابنه فى جملة ما قال إنى لما كبرت كنت أقول لو عاش أبى لما عاشرته لأنى أستنكف أن أكون فرعاً وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه ... ولكن ذهنه يشرد أحياناً فيخلط فلا تفهم كلامه لأنه يكر راجعاً فى كلامه إلى ذكرياته الطويلة فى حياته الحافلة من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة فتحس أنك تهت وضلت طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذياناً بل كر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار ... ولما قلت له إنك تبحث عنه ضحك وقال : هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف ... وقال عن كتبه لما عرض ذكرها أن خيرها ما لم يكتبه ... ولا تزال أسنانه باقية . وقد قال لى إن متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب فى بقائه حياً الى الآن ... ولما قلت له إن من واجبه أن يملى مذكراته على بعضهم صاح بى : « أعوذ بالله يا شيخ ! حرام عليك .. اتق الله فى يا بنى »

فسأل جميل بك : « وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

« أوه كل شىء ... قال لى إنه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب . وأن كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما يثقل على نفسه جداً أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره ، فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط بالزوار ، ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفيهم من الاخوان ويأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد — لسبب خارج عن ارادته بل ضد ارادته — أنه يعيش كما يعيش الناس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ؛ وقد كبر فى ظنه أنه سيظل حياته هكذا ؛ ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا — يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحرية ؛ فكره هذه الحرية الظاهرية ومل السخط على نفسه

فود لو أنه مقيد حقيقة بارادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحى باللائمة على هذه الارادة الخارجية ويجعلها غرضاً لذمه وطعنه . ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة وركب على بواخرها البحار وأقام فى الموانئ منـدوباً لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلاً تجارياً يجوب المدن ويذرع الأرض داعياً مرغباً ، ثم انقلب مدرساً للغة العربية فى بلاد الأفغان حتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعده فى الحقيقة ، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه عاتٍ فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سناً ؛ وكان قد جمع مالاً فى رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد ، الى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنيهاً قال لى وهو يضحك انه حدث نفسه أنه ينبغى أن يموت بعد أن تنفد فما له رزق سواها ، ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية فأنس به أصحابها وأدركوا أنه عالم وأن فى وسعهم أن يستغلوه فكان يضبط لهم الكتب القديمة التى يعيدون طبعها ؛ وساعده ذلك على اطالة عمره ، فقد أغناه ذلك عن الانفاق من رأس ماله أو ما بقى منه ، ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرته أو قلته يكون مابقى له فى الدنيا من السنين .. فهل رأيت أعجب من هذا ؟ »

فأطرق جميل بك شيئاً فشيئاً ثم رفع رأسه وقال : « لاشك أن الأمر عجيب ، ولكن ألم يأخذه ابنه بعد أن اهتدى اليه ؟ ... »

فقال سعيد : « أوه .. إن الرجل شاذ كما تعرف ، وقد أبى كل الأباء أن يذهب إلى بيت ابنه لأن هذا خليق أن يحدث فى رأيه اضطراباً لا داعى له فى حياة ابنه . . وقد أطال النظر إلى البـذلة الأنيقة التى يلبسها ابنه ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيط الذى يرتديه هو ، وأشار بيده المعروقة إلى الثوبين وقال : « لالالالا . . دعنى لشأنى فانه غير شأنك » ولم يزد بعد ذلك على الابتسام كلما ألح عليه ابنه فى القيام معه . . .

فقال جميل بك : « والآن ألا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذى كشفنا عنه ؟ ... إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقفوا على حجر قديم أفلا ينبغى أن ننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حياً وإن كان محسوباً فى أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سعيد : « بالطبع نستطيع . . يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً فى أكبر الفنادق ندعو إليه رجال الأدب والعلم والفنون والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم إليهم صاحبنا ... غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بانجاح الحفلة . . »

فهز جميل بك رأسه وقال : « لاشك . . ولكن صاحبنا لا يبالى هـذا . . ولا فائدة له منه على كل حال . . وأنا أخشى إذا دعوناه إلى الاكتئاب أن لا نفوز بشىء يستحق الذكر فنكون قد أهنا الرجل بلا داع . . ثم من يدرى ؟ فقد يأبى هـذا وذاك . . »

فقال سعيد وهو ينهض : « أقول لك . . دع هذا لى . . والله الموفق »

— ٣ —

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمى يبرح بيته ، وكان يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطيل منها ولا يكاد يحول عينه عنها . ولم

يكن يرى شيئاً فى الحقيقة إلا أشكال المبانى القريبة وذلك لضعف بصره ، ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئاً ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر وإنما كان يحدق كالذاهل ، وكانت أسارير وجهه المتجمد تنبسط أو تعمق الأخاديد التى حفرها الزمن فيخيل إلى الناظر إليه أن هذا وقع ما يشاهده ، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك ونقيضه فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدير عينه فى قلبه أى فى ماضيه فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة فى دار من دور السينما . وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحياناً مرتين — فى اليوم ويصغى إليه أكثر الوقت وهو يهضب ويسح بذكرياته التى لا آخر لها . وقال له مرة :

« ما رأيك يا أستاذ ؟ . إن خبر عودتك قد شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك »

فقال بايجاز : « فليتلهفوا »

فقال سعيد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا إليك فى النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل إلى صدهم »

فتجهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن يمنعوا ... إن المكان لا يليق . . ما العمل ؟ . أشر ... »

قال : « اسمع منى وأطعنى ... خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة »

قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك ؟ . هذا مستحيل »

قال : « كلا ... الضرورة تفتق الحيلة ... وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضاً ... فنفرغ من الأمر كله فى ساعة »

قال : « ساعة ؟ . يا حفيظ ... »

قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم وكل ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك ... فكر ... »

قال : « صدقت ... ولكن ... حفلة ؟ ... حفلة ؟ ... إن هذا صعب ... »

قال : « لماذا ؟ . أين الصعوبة ؟ . ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم تنصرف جميعاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال : « ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى ... إنى أستطيع أن أعيش ... دعنى أنظر ... »

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب ، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفاً على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك فقد كان ابنه — على بك — فقد صار بيكا — عبد القادر التميمى — فى حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه ، فانه — أى على بك — رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع أيضاً ، وليس يليق أن يكون أبوه — أى أبو على بك — هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى ربع عتيق — أو جديد إذا أمكن أن يكون هناك ربع جديد — وقد استطاع أن يرجىء لقاء بنيه ونسيبه لهذا الأب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب ، فقد زعم لهم أن المثور عليه

أو الاهتداء إليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها اتقاء أزعاجه إلى حين ، ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ولا سبيل إلى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع ، فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة ثم يظهر بعد أربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على إخفاء مسكن الرجل ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك ، ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معذورة اذا هى استرابت فى الأمر كله . أضف الى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق ؛ وقد كانت فكرة الحفلة هى التى أعانت جميل بك على اقناع الصحف بالصبر والانتظار وجعلت الموضوع شيقاً وخليقاً أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الأمر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ... ؟ لهذا لجأ الى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولا دون الفضيحة التى يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها . فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ظهر يوم الحفلة بعد أن يلبسوه بذلة الى بيت ابنه ومن هناك يذهبون به الى الحفلة فى المساء

— ٤ —

وجاء يوم الاحتفال فذهب اليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه إياها فأبى واستكبر وغضب أيضاً ، وقال إنه ليست به حاجة الى ثياب ولا الى أحد من الناس ، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان ، وإنه ماعيب ثيابه على كل حال ؟ . أليس قد قابل بها الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وإيران ؟ فاذا كانت لا تكفى هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه ، فانه يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ماجاء به من الثياب على مشجب ويقول لهم إن هذا مايطلبون وهو كل مايستحقون أن يروا

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها بل فاه بما هو أعنف ، وكان صوته متهدجا ، وكلامه متقطعاً ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب ، وأسنانه تصطك ، فلم يجد سعيد بداً من السكوت والكف عن الألحاح عليه بعد أن وضحت له قلة جدواه ، وسأل الله فى سره الستر والسلامة فى هذه الليلة

وخرجا من الغرفة — سعيد فى ثيابه الأفرنجية التى يلبسها الأفندية من أمثاله ، والأستاذ التميمى فى جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل ، فكأنه « مركوب أبى القاسم » وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لفة كانت فى الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء فى مركبة وتركها تنتظر فى الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة — هذا ينط على السلم ، وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك عدة مرات ، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التى دخل فيها هذه الحارة ، ويفرقع بصوته ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون الى رأس أمرهم ، حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون و يُضوّضُون ، والسائق يلوّح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج الى الطريق العام

ولا نطيل . ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها ، وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل ، وأشدهم قلقا واضطرابا ، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عليه سعيد أفندي أن يفاجئ فراح يحاور الأستاذ التميمي ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله ، ولكن الرجل كان جبلا لا يتزعزع ، ولما قال : « أنا كما أنا . فمن كان يقبلني على علاتي فأهلا به وإلا فإني أرجع الى غرفتي ، فما طلبت أن أجيء ولا أردت أن يعرف ابني أو سواه أني على قيد الحياة

« امسك سعيد أفندي وأقصر » وكانت الحفلة في فندق من أكبر فنادق المدينة وفي أوسع قاعاتها ، وقد دعى اليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعد . وجاء غير المدعوين — أو المشتركين — كثيرون وقفوا بحيث يرون الداخلين ؛ واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذي بعث بعد أربعين سنة ، والذي دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره في القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية

ثم أقبل أحد الشبان يعدو وقال : « جاء الأستاذ » فساد السكون وانقطع حتى الهمس ، وتعلقت الأنفاس ، واشرأبت الأعناق ، واتجهت العيون الى الباب لرؤية هذا الذي كأنما قام من القبر . ودخل الأستاذ في الثياب التي أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندي ، وأقبل ابنه وراءهم ، ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات ، وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذي الثياب المتبقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللامعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه فآلى ليرجعن الى غرفته . وعرض جميل بك المدعوين على الأستاذ بأسمائهم فصافحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه ، وإن كانوا جميعا قد ترفقوا به ، وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأديرت ألوان الطعام فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه ما اسمه وكيف يصنع ، ولا يتناول إلا بقدر . وكان المدعوون في أول الأمر يحدجونه بعيونهم ويتبيرونه النظر ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا الى الطعام والحديث . ولكل شيء آخر . — انتهى الأكل ، وبدأت الخطب والقصائد ، والأستاذ مطرق كأنه يصغي ، وكان يهز رأسه من حين الى حين كمن سره شيء — أو ما يسمع

وانتهى هذا أيضا على طوله ، فهمس جميل بك في أذن الأستاذ : « ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم ؟ »

فقال الأستاذ مستغربا : « أنا ؟ ... أقول كلمة ؟ أرد على ماذا ؟ ... إني ... الحقيقة أني لم أكن مصغياً . . لم يكن بالي اليهم »

فذعر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — ، وقال : « ولكن يا أستاذ لا بد من كلمة . لا نستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغياً الى كلامهم ... أرجو يا أستاذ ... كلمة شكر قصيرة ... القليل منك كثير »

فهز الأستاذ كتفه وقال « إن هذا غريب !! لقد كنت أفكر فى ... ليلة قضيتها فى كهف ...

فقال جميل بك مقاطعا : « فيما بعد ... بعد الحفلة نسمع ما كنت تفكر فيه ... لا بد أنه كان شيئاً غريبا ... ولكن الآن ... أرجو يا أستاذ »

فالتفت اليه وقال : « ماذا قلت أنهم كانوا يقولون ؟ إنى لم أكن مصغياً »

فقال جميل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها ... كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف ... نهايته ... لابد من الرد فاصنع معروفا »

وكان سعيد — خلال المفضلات — قد أدرك وهو فى مكانه أن فى الأمر شيئاً ، فخف إلى جميل فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ وهمس فى أذنه : « إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا مخدوعون وأنك لست الأستاذ النبيه وإنما أنت رجل غيره يتنحل اسمه فقم قل كلمة وإلا . . »

ولم يتمها ، فقد نهض الأستاذ معبساً ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب وشفته تختلج وكفاه لا تثبتان على المائدة التى وقف معتمداً عليها ، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح فى أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها إلى السكون ويحاول أن يضبط أعصابه ، ويفيء بها إلى الاتزان ، ثم فتح فمه وقال بصوت خافت :

« أيها السادة » وسكت شيئاً وثبت حملاقه ، فكأنه تمثال نصب فى مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف ، ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم فى صراحة سرت فريقاً وساءت آخرين إنه وجد بالتجربة الطويلة أن من المسير أن يهرب المرء فى هذه الدنيا من الناس — ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص — المخلصين والمتكلفين والذين يطلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك . . . كلا لا سبيل إلى الهرب . . . وطالب الفرار لا بد له من الجرى الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعو إليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه ، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب فى هذا الزمان الذى امتد به العمر إليه ... وكيف يهرب الانسان ؟ . إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل ... ومن أى مكان يهرب ؟ إن الهرب الصحيح مستحيل ... وقد يستطيع المرء أن يعيش فى الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة .. والهرب من الزمان أصعب . . . ثم يتوهم المرء أنه يعيش لا فى الحاضر بل فى المستقبل والمستقبل ، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون ، ويذهب يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغى أن تكون « إنى أؤكد لكم أنى أعرف هـــذا ، فقد فعلته — أعنى توهمته — وعشت فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون » وقال لهم : إن هذا كله عبث فى عبث ، وأكد لهم أنه لا مسوغ على الاطلاق لأن يفترض الانسان أن للجنس الانسانى مستقبلاً — هذا أولاً — وثانياً أن ما نسعى له ونلح فى طلبه أو تمنيه قد يكون مستحيل التحقيق . وهب تحقيقه ميسوراً فقد يتبين أنه ليس

مما يسيئه أو يرتاح إليه أو يرضى به الجنس الانساني .
وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟ ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التي لا تزول ولا تتغير ممكنة ألا يستفظعها الانسان ويفرق من تحقيقها ؟ على أن التفكير في المستقبل والسعي له لا يمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده ... وهنالك مهرب آخر ، إذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال ، ولكن اللجوء إلى الخيال لا ينفي الحقائق المحيطة بالانسان ... وانتهى الى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون في الحياة ، وهذا لا يعد مهرباً لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بادراكه . إنه استطاع الهرب ، ولو كان هذا مهرباً حقيقياً للجأ إليه . وابتسم وقال إنه يرجو ألا يلجئوه الى هذا الذي ليس مهرباً ...

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقى من التكريم من أجلها ، فقال : انه واثق أن أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه ولم يكونوا يعلمون أن له كتباً ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده . وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ، ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره إلا بالمجاملة ، وهي شيء حسن في ذاته ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته ؛ وهو ليس من هذا الزمن فيحسن أن يرتد ويتراجع الى ما أخرجوه منه ، لأنه ليس إلا قطعة متخلفة من زمن سابق ، ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ...

وظل يهضب على هذا النحو الذي لم يكن منتظراً ولا كان في حساب أحد ؛ وطال الأمر فمل الناس ، وأحس هو الهمس فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه ، أو أن يبغضها اليهم ليتركوه بعد ذلك في سلام ... ولم يطق البعض المقام ، أو طوله ، فتسلل خارجا وتبعه غيره وغيره ، حتى لم يبق إلا دون النصف

ولكل شيء آخر ... عاد الأستاذ الى غرفته لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه ، فقد أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة

وفي الصباح جمع ثيابه وأشياءه وانتقل الى ربع آخر

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التي طلت أياماً تدعو لها وتروج وفي صدر أكثرها خطبته التي عنى سعيد بتدوينها ؛ فلم يجد الأستاذ وأعياه أن يعرف أين ذهب ، فأسرع الى ابنه على بك يخبره ويسأله ما العمل ؟ فقال على بك وهو يرسل الدخان في الهواء : « أظن أن الواجب أن نحترم إرادته ونعفيه من الأثقال عليه »

ابراهيم عبد القادر المازني

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً